

المحاضرة الأولى

مقدمة:

نشأت علوم اللغة العربية حفاظاً على النص القرآني من التحريف أو التبديل، وعصمة ألسنة الناس من اللحن والخطأ، ولنشأتها أسباب أخرى وكلها يرتبط بالقرآن وفهم معانيه. وبفضل كلام الله تعالى بوركنت العلوم العربية ببركته ودامت بدوامه وحفظه إلى أن يرفع الله العلم (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فالقرآن نقل اللغة العربية من لهجات محلية إلى لغة عالمية.

فاستعان العلماء باللغة العربية وعلومها في فهم كلام الله وتحديد دلالاته. وقد جعل ابن تيمية رحمه الله اللغة العربية من الدين الإسلامي بقوله: "إنَّ نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب، فإنَّ فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"

ومن خلال ذلك عزيزي الطالب أريد أن أضع بين يديك مقرر : لغويات قرآنية وهي موضوعات لغوية متفرقة اختص بها القرآن الكريم فلا تجدها في كلام العرب نظماً كان أم نثراً ولعل ذلك من أسباب إعجازه.

يهدف هذا المقرر إلى إلمام الطالب ببعض الخصائص اللغوية للقرآن الكريم وبيان بلاغة القرآن الكريم وإعجازه. وقوف الطلاب على المعاني الدقيقة للألفاظ ودلالاتها من خلال الآيات التي سنتناولها.

ومن هذه الموضوعات اختلاف القراءات وأثره على بعض القواعد النحوية والصرفية وبعضها نجدها متفرقة في كتب التفسير والعلماء المهتمين بعلوم القرآن. وهي بالتفصيل ما يلي:

1. أثر القراءات في النحو والصرف
2. الجانب الصوتي لرواية حفص
3. نظم الجملة في القرآن الكريم
4. التوسع في المعنى في القرآن الكريم
5. التصوير والتخييل الحسي في القرآن الكريم
6. دلالات الألفاظ وسر الكلمة في القرآن الكريم
7. الكناية والتعريض في القرآن الكريم
8. بلاغة الحذف والذكر في القرآن الكريم
9. بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم

أثر القراءات في النحو والصرف

أولاً : أثر القراءات في النحو:

شغلت القراءات القرآنية أذهان النحاة منذ نشأة النحو ، ذلك لأن النحاة الأوائل الذين نشأ النحو على أيديهم كانوا قراء كأبي عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر الثقفي ، ويونس بن حبيب ، والخليل بن أحمد الفراهيدي . ولعل اهتمامهم بهذه القراءات وجههم إلى الدراسة النحوية ليلائموا بين القراءات والعربية بين ما سمعوا ورووا من القراءات وبين ما سمعوا ورووا من كلام العرب .

فابن كثير كان يقرأ: **وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا** النساء: ٤٠ برفع حسنة. والخليل كان يقرأ: **وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا** ٢٣ بضم الراء (الراء). وعيسى بن عمر يقرأ: **وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا** ٣٥ بالنصب (بلاغاً) هو على إضمار فعل أي: بلغوا بلاغاً. وهذا يؤكد لنا أن اختلاف القراءات أسهم كثيراً في ظهور النحو لذلك أثرت فيه تأثيراً كبيراً. ومن هذه التأثيرات:

1/ أثر القراءات في المدرستين البصرية والكوفية:

فالبصريون يدللون على قواعدهم من كلام العرب ولا يحتجون بالقراءات إلا في القليل النادر كما في قولهم: (إِنْ) المخففة من الثقيلة تعمل النصب في الاسم بقراءة من قرأ **وَإِنْ كَلَّا** لَمَّا لُيُوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ١١١ بالتخفيف ، وهي قراءة نافع وابن كثير . أما الكوفيون يرون أن القراءات أقوى في الاستدلال من كلام العرب لأن سندها الرواية وفيها الدقة والضبط والاتقان. ويعتبرونها قاعدة بغض النظر عن موافقتها للقياس أم لا. ومما اختلفت فيه المدرستان :

أ/ وقوع الفعل الماضي حالاً : ذهب الكوفيون إلى أن الفعل الماضي يجوز أن يقع حالاً ، واحتجوا بقوله تعالى: **جَاؤُكُمْ حَصَرْتُ صُدُورُهُمْ** النساء: ٩٠. فحصرت فعل ماضي ، وهو في موضع الحال ، وتقديره : حصرة صدورهم . وهي قراءة الحسن البصري ويعقوب الحضرمي ، والمفضل عن عاصم. أما البصريون فذهبوا إلى أنه لا يجوز أن يقع حالاً ، وخرّجوا الآية إلى أربعة أوجه هي:

الأول: أن تكون صفة لقوم المجرور في أول الآية.

الثاني: أن تكون صفة لقوم مقدر ويكون التقدير: أو جاؤوكم قوماً حصرت صدورهم.

الثالث: أن يكون خبراً بعد خبر . كأنه قال: أو جاؤوكم ثم أخبر فقال : حصرت صدورهم.

الرابع: أن يكون محمولاً على الدعاء لا على الحال ، كأنه قال ضيق الله صدورهم.

ب/ فعل الأمر بين الإعراب والبناء : ذهب البصريون إلى أنه مبني على السكون ، وقالوا علة وجود الإعراب في الفعل المضارع وجود حرف المضارعة ، فما دام حرف المضارعة لا يوجد مع الأمر فهو مبني. أما الكوفيون قالوا أنه معرب واحتجوا بقولهم : أن الأصل في الأمر للمواجه في نحو (افعل) لتفعل ، كقولهم في الأمر للغائب (ليفعل) وعلى ذلك قوله تعالى: **فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** ٥٨. في قراءة من قرأ بالتاء وهي قراءة أبي بن كعب. فلما كثر استعمال الأمر للمواجه في كلامهم وجرى على ألسنتهم أكثر من الغائب استنقلوا مجيء اللام فيه فحذفوها مع حرف المضارعة طلباً للتخفيف.

2/ أثر القراءات المشكلة على القاعدة المطردة :

هنالك قراءات ظاهرها يدل على أنها مخالفة القواعد القياسية . منها على سبيل المثال:

أ/ قوله تعالى: جَاءُواكُمْ حَصَرْتُ صُدُورُهُمْ ٩٠ في قراءة من قرأ بالتضعيف (إِنْ)

قال ابن قتيبة: قالوا في هذه الآية هي لغة بلحارث بن كعب يقولون : مررت برجلان ، وقبضت منه درهمان ، وجلست بين يديه ، وهكذا. ثم قال : إن القراء قد اختلفوا في قراءة هذا الحرف فقرأه أبو

عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر . إنّ هذين لساحران ، وذهبا إلى أنه غلط من الكاتب كما قالت عائشة رضي الله عنها.

وقال ابن الأنباري: إن بمعنى نعم . وهذا وجه ضعيف لدخول اللام في الخبر وهو قليل في كلامهم . وقيل إنها مضمرة مع إن وتقديره : إنه هذان لساحران . كما تقول: إنه زيد منطلق وهو حسن لولا دخول اللام على الخبر . فأما من خفف إن فهي قراءة حسنة لأنه أصح في الإعراب ولم يخالف الخط . وما اختاره ابن مالك أن هذان اسمها وهي جاءت على لغة بلحارث كقوله : قد بلغا في المجد غايتها . والصواب في ذلك أنها تؤخذ كما هي بأي قراءة كانت لأن القراءات توقيفية ولكل منها معنى مقصود . سنعرفه لاحقاً إن شاء الله تعالى.

ب/ قوله تعالى: جَوَامِسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ المائدة: ٦

قال النحاس: من قرأ بالنصب جعله عطفاً على الأول (واغسلوا أرجلكم) . ثم قال : إن الأخفش وأبا عبيدة يذهبان إلى أن الخفض على الجوار والمعنى للغسل ومثله : هذا حجر ضب خرب وهذا غلط عظيم ، لأن الجوار لا يجوز في الكلام أن يقاس عليه وإنما هو غلط ، ونظيره الإقواء . ونقل عن علي بن سليمان قوله: (وأرجلكم غسلًا) ثم حذف هذا لعلم السامع به.

أما الزجاج فيرى أن الوجهين كليهما جائز في العربية ، فمن قرأ بالنصب فالمعنى فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين ، وامسحوا برؤوسكم على التقديم والتأخير والواو جائز فيها ذلك كما قال عز وجل : ۞ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ۚ آل عمران: ٤٣ . والمعنى اركعي واسجدي لأن الركوع قبل السجود .

ومن قرأ: وأرجلكم بالجر عطف على الرؤوس: قال بعضهم : نزل جبريل بالمسح والسنة في الغسل.

3/ قراءات بنيت عليها قاعدة نحوية:

ومن ذلك جواز تأنيث المذكر إذا أول بمؤنث بقراءة أبي العالية: (لا تنفع نفساً إيمانها) فالفعل مسند إلى الإيمان لكنه في المعنى إطاعة وإنابة ، فكان ذلك سبب تأنيثه . وأيضاً هذه القاعدة سار عليها ابن مالك . ومن ذلك قوله تعالى: (وباطلاً ما كانوا يعملون) بقراءة ابن مسعود وأبي بن كعب . قال ابن جني: باطلاً منصوب بيعملون ، وما زائدة للتوكيد فكأنه قال: (وباطلاً كانوا يعملون)، ثم قال وفي هذه القراءة دلالة على جواز تقديم خبر كان عليها . كقولك: قائماً كان زيدٌ وواقعاً كان جعفر .

4/ أثر القراءات في المؤلفات النحوية:

بسبب هذه القراءات ظهرت كتب نحوية مستقلة تدور حول القراءات مؤيدة لها موضحة معانيها منها (الحجة) لأبي علي الفارسي ، و(الحجة) لابن خالويه ، و(المحتسب) لابن جني ، و(الكشف عن وجوه القراءات) لمكي بن أبي طالب ، و(إعراب القراءات الشواذ) للعكبري . ونتناول من هذه الكتب:

أ/ (الحجة) لأبي علي الفارسي: ذكر أن كتابه يدور حول القراءات السبع وحدها وهذا الكتاب شغل أذهان كثير من النحاة واللغويين وكانت آراؤهم حوله مختلفة فأبو العلاء المعري كان يرى أنه من أفضل الكتب لأنه دافع عن القراءات السبع التي ينكرها كثير من النحاة.

ومن أمثلة ما تناوله في هذا الكتاب قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ البقرة: ٤٨. قرأ ابن كثير وأبو عمرو (لا تقبل) بالتاء وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي (لا يقبل) بالياء ... فأما حجة من قال : لا تقبل فالحق علامة التأنيث ، فهي أن الاسم الذي أسند إليه هذا الفعل مؤنث فيلزم أن يلحق المسند أيضاً علامة التأنيث ليؤذن لحاق العلامة بتأنيث الاسم ، كما ألحق الفعل حيث ألحق ليؤذن بأن الخبر معرفة ، أو قريب من المعرفة.

وحجة من لم يلحق أن التأنيث في الاسم ليس بحقيقي ، وإذا كان كذلك حمل على المعنى فذكر ، ألا ترى أن الشفاعة والشفع بمنزلة ، كما أن الوعظ والموعظة والصيحة والصوت كذلك.

ب/ (المحتسب في تبیین وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها) لأبي الفتح عثمان بن جني . تناول فيه القراءات التي يقال عنها شاذة فابن جني يرى أنها موثوقة قال: (وضرباً تعدى ذلك، فسماه أهل زماننا شاذاً؛ أي: خارجاً عن قراءة القراء السبعة المقدم ذكرها، إلا أنه مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرائه، محفوف بالروايات من أمامه وورائه، ولعله -أو كثيراً منه- مساوٍ في الفصاحة للمجتمع عليه) .

ومن أمثلة ما تناوله قوله تعالى: ﴿وَأَقَمْنَ أَسْوَءَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ تَوْبَةً ۚ ١٠٩﴾ قال من ذلك ما حكاه ابن سلام : قال سيبويه: كان عيسى بن عمر يقرأ على تقوى من الله ، قلت على أي شيء نون قال: لا أدري ولا أعرفه؟ فقلت هل نون أحد غيره ؟ ، قال : لا.

قال ابن جني: التتوين قياسه أن تكون ألفه للإلحاق ، لا للتأنيث كتنترى فيمن نون وجعلها ملحقة بجعفر.

أثر القراءات في الصرف

الزيادة والنقصان في بنية الكلمة:

(خدع وخادع) في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ البقرة: ٩ قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي (يخدع) بفتح الياء دون ألف، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (يُخَادِعُ)، بضم الياء وألف بعد الخاء. القراءة الأولى: مضارع خدع على (فعل)، والثانية: مضارع (خادع) على فاعل، وهما من (خ.د.ع) يخدع خدعاً وخديعةً، وهو إظهار الشخص خلاف ما يخفيه (والخداع: إنزال الغير عما هو بصده بأمر يبيده على خلاف ما يخفيه). وفي توجيه دلالة الصيغتين قولان: أحدهما: أن (فعل) و(فاعل) هنا لهما الدلالة نفسها، ف(يخادعون) (معناه: يخدعون)، فهما في المعنى سواء، وإلى هذا القول ذهب كثير من أهل اللغة.

الثاني: إن (فاعل) تزيد دلالة على (فعل)، ف(خدع) (معناه: خدع غيره، ومعنى (خادع) خدع غيره، وغيره خدعه، وفي هذا القول تمسك بالأصل في (فاعل)؛ حيث إن باب المفاعلة هو المشاركة، ولا تكون إلا من اثنين، وذلك نحو: ضاربت أخاك، وجالست أباك. وأصل المفاعلة أن تكون من اثنين، وهي كذلك هنا، إنهم في خداعهم ينزلون أنفسهم منزلة أجنبي يدور الخلاف بينهما، فهم يخدعون أنفسهم، وأنفسهم تخدعهم. قال الكميت:

تَذَكَّرْ مِنْ أَنِّي وَمَنْ أَيْنَ شَرُّهُ يُؤَامِرُ نَفْسِيهِ كَذِي الهِجْمَةِ الْأَبْلُ

ومع اتساق هذين الوجهين مع ما استقر في الدرس الصرفي كما سلف، فمن العلماء من رجع بين تلك القراءتين؛ كابن جرير الطبري ومكي بن أبي طالب رحمهما الله يرجحان القراءة بالصيغة المجردة بدعوى أنها أصح معنى من القراءة بالصيغة المزيدة.

(فعل وأفعل):

(فعل) و(أفعل) صيغتان مزيديتان بحرف واحد، الأولى مزيدة بالهمزة في أولها، والثانية بتكرير عينها، ولا يخفى على متخصص تعاقب هاتين الصيغتين على الفعل الواحد، نحو: خبر وأخبر، وفرح، وأفرح، وكمل، وأكمل... الخ. أما العلاقة الدالية بينهما: فمنهم من قال متساويتان في المعنى الأولى حجازية، والثانية تميمية، يقول سيبويه رحمه الله: "وقد يجيء (فعلت) و(أفعلت) المعنى فيهما واحد، إلا أن اللغتين اختلفتا". ومنهم من قال بانفراد كل واحدة منهما بمعنى لا تدل عليه أختها، يقول سيبويه مستأنفاً كلامه السابق الذكر: "وقد يجيئان مفترقين، مثل: علمته وأعلمته، فعلت: أدبت، وأعلمت: آذنت، ... وآذنت: النداء والتصويت بإعلان.

ومنهم من قال أنهما متضادان: إذ تدل كل صيغة على معنى معاكس أختها، يقول سيبويه: "وتقول: أمرضته أي: جعلته مريضاً، ومرضته، أي: قمت عليه وواليتها. وقد ثبت عن السبعة اختلافهم بين (فعل) و(أفعل) في مواضع كثيرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة: ١٣٢. قرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي: (وصى) بتشديد الصاد دون همزة، وقرأ نافع وابن عامر (أوصى) بتخفيف الصاد وهمزة في أول الفعل. أكثر أهل اللغة على أنهما لغتان بمعنى واحد، وهو: عهد إليهم، أي: إلى بنيهم بالملة (لا تموتن إلا وأنتم مسلمون). ولكن في قراءة التشديد تكراراً لا تجده مع الأخرى. فيكون المعنى عهد إليهم عهداً بعد عهد. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ جال عمران: ٣. فلما كان نزول القرآن على فترات أستعمل معه (نزل)، واستعمل (أنزل) مع التوراة والإنجيل حيث كان نزولهما دفعة واحدة.

أثر الاختلاف في ميزان الكلمة:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ البقرة: ٧٨. قرأ «أبو جعفر» «أماني» وبابه مثل «وأمانيتهم، ليس بأمانيتكم ولا أمانيت أهل الكتاب، في أمانيته» بتخفيف الياء المفتوحة. وقرأ الباقيون بتشديد الياء. وتوجيه القراءتين أن «أماني» جمع «أمنية» وأصلها «أمنية» على وزن «أفعولة» اجتمعت الواو والياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء، وأفعولة تجمع على «أفاعيل» مثل «أنشودة» تجمع على «أناشيد» وعلى ذلك جاءت قراءة جمهور القراء. ووجه قراءة «أبي جعفر» أن «أفعولة» جمعت على «أفاعيل» تخفيفاً مع عدم الاعتداد بالواو التي كانت في المفرد، كما جمع «مفتاح» على «مفاتيح». ومنها: «السلام» من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾

النساء: ٩٤. قرأ «نافع، وابن عامر، وحمزة، وأبو جعفر، وخلف العاشر» «السلام» بفتح اللام من غير ألف بعدها، على معنى الاستسلام، والانقياد، ومنه قوله تعالى: وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ.

فالمعنى: «يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله، وخرجتم للجهاد فتثبتوا ولا تقولوا لمن استسلم وانقاد اليكم لست مؤمنا فتقتلوه، بل يجب عليكم أن تتبينوا حقيقة أمره».

وقرأ الباقر «السلام» بفتح اللام وألف بعدها، على معنى التحية، فتحية الاسلام هي: «السلام عليكم» وعليه يكون المعنى: لا تقولوا لمن حياكم تحية الإسلام لست مؤمنا فتقتلوه، لتأخذوا سلبه.